إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل

محمود إسماعيل

مصر

معلوم أن الخلاف بين المؤرخين يكمن أساساً حول مسألة التفسير أو التأويل، أي معرفة الأسباب والعلل الكامنة وراء أحداث التاريخ ووقائعه، ذلك أن المؤرخ حين يؤرخ لموضوع ما عليه أن يجيب علي أسئلة ثلاثة أساسية هي: ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ والإجابة عن السؤالين الأولين لا تثير أي خلاف، إنما يشجر الخلاف أصلاً في الإجابة علي السؤال الثالث، لا لشيء إلا لأنها تعكس منظور أو "مخيال" المؤرخ الذي هو نتاج ثقافته وأيديولوجيته. ومعلوم أن الأيديولوجيا تفت في مصداقية المعرفة وتلونها بألوان قد تكون مجافية للحقيقة.

ولعل هذا يفسر دعوة بعض المدارس التاريخية إلي التغاضي عن تفسير الوقائع التاريخية والاهتمام فقط بتحقيق مصداقية الأخبار. لكن هذه الدعوة تنقص من قدر المؤرخ. كذا من نتاج عمله وتجعله إخبارياً" ليس إلا، وتحكم علي جهوده بالقصور، لأن علماً بلا تعليل ناقص في التحليل الأخير.

فغاية العلم هي الوقوف علي الأسباب والعلل التي تحرك الظواهر الطبيعية والإنسانية على السواء. ومن ثم أصبح قانون "السببية" أهم قوانين العلم علي الإطلاق.

وفي مجال العلوم الإنسانية – ومن ضمنها التاريخ بطبيعة الحال – جري الاهتمام بالتعليل أو التأويل أو التفسير، إلي حد ظهور علم لهذا الغرض هو علم "الهرمينيطيقا". وتعاظم دور هذا العلم إلي درجة الطموح إلي التنظير باعتباره أقصي درجات العلم وأسماها.

معلوم أن نشأة علم التاريخ عند المسلمين كانت نشأة عملاقة، بشهادة جمهرة الدارسين والباحثين،لذلك اهتم المؤرخون الرواد بالتعليل والتفسير باعتباره مطلباً أساسياً لاكتمال عملية كتابة التاريخ، وتطورت جهود الأجيال التالية من مؤرخي الإسلام لتصل مرموقة في هذا المجال بولوج باب "فلسفة التاريخ".

من هنا تطمح هذه الدراسة إلي معالجة إشكالية التفسير – التي لطالما اختلف القدماء والمحدثون بصددها – عند المؤرخين المسلمين الأوائل بهدف إثبات خطأ الأحكام المتواترة عن تبني هؤلاء المؤرخين جميعاً الرؤية الدينية للتاريخ، بما يعني أن العناية الإلهية هي التعليل الأول والأخير لوقائع التاريخ وأحداثه. كذا إثبات خطأ زعم القائلين بأن فلسفة التاريخ لم يطرقها مؤرخ قبل ابن خلدون.

ما سنحاول إثباته بالفعل هو أن المؤرخين المسلمين الرواد ولجوا باب التفسير إلي حد التنظير منذ نشأة علم التاريخ الإسلامي حول منتصف القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، حيث بلغ تطور الفكر التاريخي ذروته، لقد مر الفكر التاريخي الإسلامي خلال هذه الفترة بحقب ثلاث، تمثل الأولي منها طور النشأة، وتبدأ من منتصف القرن الثاني إلي منتصف القرن الثالث الهجريين، وهي فترة شهدت سيادة نمط الإنتاج البورجوازي علي الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، ونشأة العلوم وتدوينها، كانعكاس للمد الثقافي المتعاظم والمعبر عن عطاء الطبقة الوسطي. وفي مجال علم التاريخ، وضعت مناهجه، وتحددت موضوعاته، وطرق المؤرخون باب التفسير علي استحياء.

أما المرحلة الثاني: وتشمل الفترة ما بين منتصف القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد سادها نمط الإنتاج الإقطاعي الذي عكس تأثيره علي سائر الأصعدة ومنها الصعيد الثقافي بطبيعة الحال. إذ انتكست النهضة العلمية و الثقافية بغلبة الاتجاهات الغيبية والنصية علي حساب المد العقلاني الذي لازم مرحلة التأسيس. وبديهي أن ينتكس الكر التاريخي،موضوعاً ومنهجاً ورؤية، بغلبة الرؤية اللاهوتية.

أما المرحلة الثالثة: وتشمل الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقد سادها النمط البورجوازي في الإنتاج مرة أخري وأخيرة، الأمر الذي أسفر عن تأثيرات إيجابية سياسياً واجتماعيا وثقافيا، وبديهي أن يتأثر الفكر التاريخي، بتلك التحولات، ليصل إلي أوج ازدهاره ! حيث بلغ التفسير العلمي العقلاني للتاريخ مداه بحيث شهد العصر بواكير فلسفة التاريخ.

تلك تقدمه عامة، تعرض لغاية الدراسة وتحدد معالمها، تعد توطئة لبسط هذه المعالم مفصلة موثقة.

في طور نشأة علم التاريخ الإسلامي، يتفق الدارسون علي أن هذه النشأة الإيجابية كانت تعبيراً عن مد ثقافي مزدهر، باعتبار التاريخ من أهم مقومات الثقافية العربية والإسلامية[1]. وقد أسهم في تلك النشأة جيل من المؤرخين الأفذاذ، كالطبري، والبلاذري، وابن طيفور، واليعقوبي، وابن قتيبة، وابن عبد الحكم وغيرهم ممن اعتبرهم ابن خلدون رواد علم التاريخ في الإسلام[2].

وبتتبع منحي سير هؤلاء المؤرخين[3] نجد أن معظمهم ينتمون إلي الطبقة الوسطي التي تبنت النهضة العلمية والفكرية في الإسلام، فكانوا موسوعي الثقافة ليبرالي التفكير[4]،بما أهلهم لتأصيل ركائز علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو الوقوف علي طبيعة هذه الرؤى، أو بالأحرى موقفهم من إشكالية التعليل والتأويل، وفي هذا الصدد، يخطئ من أن تصور أن الحديث عن هذه الرؤى عند هذا الجيل من المؤرخين أمر سابق لأوانه[5]، صحيح أن جل اهتمامهم انصب علي الأخبار وتحقيقها، لكنهم لم يغفلوا تعليلها وتحليلها، وفي هذا المعني ذكر اليعقوبي: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا إلي اعتمادي في كل ما أخطرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو علي ما رويت من الأخبار التي أناد ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلي روايتها، دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل".

---

[1] جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام، الترجمة العربية، ص١٥٣، بيروت ١٩٦٤.

[2] مقدمة ابن خلدون، ص٤، القاهرة، ب .ت.

[3] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـ١، ص٢٨٦، ٢٨٧، الدار البضاء ١٩٨١.

[4] روزنتال: علم التاريخ عند المسلمين، الترجمة العربية ص٩٢، بغداد ١٩٦٤.

[5] أنظر: علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، ص٣٣، القاهرة، ب . ت .

والدارس لأخبار اليعقوبي[٦] لا يعدم وجود رؤية خاصة للتاريخ فحواها الربط بين حركة الأحداث وحركة الأفلاك، وعند غيره من معاصريه نقف علي رؤي أخري وضعانيه وعلميه، فالبلاذري –مثلاً– عول علي تأثير الاقتصاد في الصيرورة التاريخية في كثير من الأحيان. أما ابن قتيبة فهو يمحور وقائع العصر الراشدي حول مسألة الصراع علي الخلافة، واتخذ بعض المؤرخين من ذكر عبارات بعينها في مواضع بعينها أيضاً – مثل والله أعلم – ما يدل علي موقف مضمر للمؤرخ يفهمه القارئ اللبيب، نظراً لوجود محاذير وإكراهات تحول دون الإفصاح ولا غرو، فمعلوم أن الحنابلة رجموا دار الطبري بالحجارة[٧].

ولعل تلك المحاذير والإكراهات كانت من وراء تبني بعض المؤرخين تفسيرات أسطورية أو تيولوجية أوردوها من باب التقية[٨]. كذا تعويل البعض الآخر علي التفسيرات العنصرية[٩] والطائفية تحت تأثير تواجد الشعوبية والصراعات المذهبية[١٠].

وقد تعاظمت هذه الرؤى اللاعلمية خلال المرحلة التالية التي شهدت ظواهر التمزق والفرقة السياسية وتفاقم النعرات العصبية والعنصرية وانتكاسة الفكر العقلاني، كنتيجة لغلبة الإنتاج الإقطاعي، مع تواجد شاحب للبورجوازية.

بديهي أن يتأثر الفكر التاريخي بتلك المعطيات السلبية، ولا أدل علي ذلك من تدهور مكانة علم التاريخ في نظر مصنفي العلوم فأسقطوه بالكلية من مصنفاتهم باعتباره يفتقد إلي صفة العلمية[١١]. وهو أمر لفت نظر مؤرخ فذ كالمسعودى، حين اعتبر مؤرخي العصر مسئولين عن تدهور علم التاريخ "وإبادة وآثاره وطمس منارة[١٢]"، خصوصاً من

---

[٦] كتاب البلدان: ص٣٥٨، ليدن ١٨٩١.

[٧] ياقوت: معجم الأدباء، ج١٨، ص٩٥، طهران ١٩٦٥.

[٨] عن مزيد من المعلومات في هذا الصدد، راجع: محمود إسماعيل سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٣ – ٢٩٤.

[٩] راجع علي سبيل المثال: أبو العرب تميم: طبقات علماء إفريقية، ص١٤ وما بعدها، تونس ١٩٦٨.

[١٠] عن المزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ١، ص٢٩٧، ٢٩٨.

[١١] روزنتال: المرجع السابق، ص٤٨.

[١٢] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٥، بيروت، ب.ت.

أصبح منهم من "مؤرخين البلاط"، أو ممن أشتغل بالتاريخ خدمة لعلم الحديث بالأساس[١٣]، فكانوا لذلك محدثين أكثر منهم مؤرخي، بشهادة ابن النديم[١٤] لذلك لم يخطئ باحث ثقة حين اعتبرهم "أنصاف مؤرخين[١٥]"، فهموا غاية التاريخ فهما قاصراً مؤداه التبرير للسلاطين وإمتاعهم في مجالس السمر، حيث غدت "الأسمار مرغوباً فيها ومشتهاة .. فصنف فيها الوراقون وكذبوا[١٦]".

لقد أفسد "مؤرخو السلطة" علم التاريخ إلي حد تطويع الدين لخدمة السلطان، فها هو جعفر بن محمد المر وزي (ت ٢٧٤ هـ) يصنف في هذا المعني كتاب "تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان[١٧]"، بينما أغفل تاريخ الشعوب ووصمها بأقبح النعوت، وفي هذا الصدد ألف الكثير عن "مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغنام[١٨]".

وجري اعتبار ثوراتهم الاجتماعية من قبيل "المحن" و "الفتن[١٩]" التي يجب أن يقمعها السلطان دون هوادة.

بديهي والأمر كذلك، أن تنزلق رؤى المؤرخين إلي التفسيرات الأسطورية والإثنية والطائفية وتقديس الأبطال المؤيدين بالعناية الإلهية[٢٠]، كما فشت الرؤى التهويمية التي تربط حركة الأحداث بالطوالع والنجوم[٢١].

أما عن مؤرخي المعارضة فقد احتفظ بعضهم بالكثير من إيجابيات مرحلة التأسيس، فكتبوا التاريخ علي أساس "الدراية" لا "الرواية" معولين في التعليل والتفسير علي العقلانية والمنطق، منددين بمفاسد السلطة ورجالاتها[٢٢].

---

[١٣] بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية، جـ٣، ص٦٨، القاهرة ١٩٩١.

[١٤] الفهرست، ص٢٣١، ٢٣٢، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

[١٥] أنظر: شاكر مصطفي: التاريخ والمؤرخون العرب، جـ١، ص٢٠٤، بيروت١٩٨٣.

[١٦] ابن النديم: المرجع السابق، ص٣٠٨.

[١٧] نفسه، ص١٥٠.

[١٨] نفسه، ص١٥٢.

[١٩] صنف الشيباني (ت ٢٧٣هـ) كتابين يحملان هذين العنوانين.

[٢٠] سالم أحمد محل: المنظور الحضاري في التدوين التاريخي، قطر ١٩٩٧، ص١٢١ز

[٢١] روزنتال: المرجع السابق، ص١٥٩.

ومع ذلك تأثر البعض الأخر سلباً بمعطيات العصر السياسية والثقافية، فلم تخل مصنفاتهم من تهويم الرؤية والشطط في الرأي. لقد كتب هؤلاء في الغالب الأعم وفق منطق "الدفاع" عن مذاهبهم وأيديولوجياتهم، فاتسمت كتاباتهم بالسجالية والتعصب، كما روجوا لأفكار تهويمية أسطورية كفكرة "المهدي" أو "المخلص" مما فت في قيمة ما صنفوا من تواريخ دارت معظمها حول عقائد مذاهبهم ورجالاتهم[٢٣].

فعلي سبيل المثال أرخ شليمة محمد بن الحسن (ت ٢٨٠هـ) لبعض حركات المعارضة، لكن كتابه صودر وأحرق، كما دون سعد بن عبد الله القمي (_ت ٢٩٩هـ) كتاباً عن الشيعة لاقي نفس المصير، وإذ أفلت كتاب "مقاتل الطالبين" للأصفهاني، من المصادرة فيعد أنموذجاً للكتابات ذات الطابع المأساوي "البكائي" التي تتعالى فيها التشنجات العاطفية علي التفسيرات العقلانية والواقعية.

وفي نفس المنحي صنف مؤرخو المعتزلة عن مذهبهم ورجالاته وأعلامه، كما هو حال البلخي (ت ٣١٩هـ) في كتاب "طبقات المعتزلة"، أما مصنفات المتصوفة فاتخذتفي الغالب الأعم طابعاً أخلاقياً، إذا استهدف مصنفوها تغيير الواقع بالنصح والوعظ أو الدعاء من أجل الخلاص، يفهم هذا من مصنفات صوفية مثل "مواعظ الخلفاء" و "ذم المنكر" و " الفرج بعد الشدة" .. الخ وكلها تتنكب طريق العقلانية وتعول علي الخرافات والكرامات والخوارق.

علي أن الرؤى العقلانية لم تختف تماماً خصوصاً عند نفر من مؤرخي المعارضة. بل لا نعدم وجود ثلة من المؤرخين الذين ارتقوا بالكتابة التاريخية موضوعاً ومنهجاً تعليلاً وتحليلاً وتأويلاً. ويرجع ذلك فيما نري إلي أن الصراع بين البورجوازية والإقطاع، ومن ثم بين العقل والنقل لم يحسم حسماً قاطعاً، مما أتاح للقوي البورجوازية وفكرها العقلاني النقدي التجريبي مكاناً في الساحة وإن كان ضيقاً ومحاصراً. وفي هذا

---

[٢٢] عن نماذج لهذا الصنف من المؤرخين: راجع: ابن النديم: المرجع السابق، ص١٤٦- ١٤٧، ١٥٠-١٥١.

[٢٣] نفسه، ص١٨٢,١٢٧.

الصدد يعد المسعودى (ت٣٤٦ هـ)المؤرخ أنموذجاً معبراً عن هذا التيار الأمر الذي يجعلنا نتوقف عنده ملياً للوقوف علي رؤيته العلمية للتاريخ.

ولعل في حياة المسعودى إبان أواخر عصراً "الإقطاعية المرتجعة" وأوائل عصر "الصحوة البورجوازية الثانية" ما يلقي الضوء علي عقلانيته وموسوعيته[٢٤]. يضاف إلي ذلك كذلك كونه تاجراً ينتمي إلي الطبقة الوسطي اجتماعياً ، وإلي الاعتزال الزيدي مذهبياً[٢٥]، مما أهله ليتسم مكانة مرموقة بين مؤرخي عصره. ولعل اشتغاله بالجغرافيا ومزجه إياها بالتاريخ وتعويله علي الرحلات طوال أربعين عاماً[٢٦] كان من وراء اتساع منظوره ورحابة مخياله ومن ثم اتسام رؤيته التاريخية بالعقلانية والواقعية والشمول.

في كتابه "مروج الذهب" تأريخ عالمي متطور بالقياس للتواريخ العالمية السابقة، ففي عرضه الأحداث مزج بين التاريخ وعمل الكلام فالعالم في نظره "مخلوق"[٢٧] كما يذهب المعتزلة وفي وصفه للأمم والشعوب مزج بين الإثنوغرفيا والثقافة أو وقوفه علي ما يمكن تسميته بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" ومعلوماته الجغرافية حافلة بالتأويلات والتفسيرات التي تربط بين حركة التاريخ وحركة الكواكب، كذا بينه وبين الجغرافيا الطبيعية، وفي هذا الصدد وقف علي تأثير التربة في الإنتاج الغذائي، وتأثير الأخير في طبائع وأمزجة البشر[٢٨].

وحين عرض للعرب رصد أنماط حياتهم مميزاً بين مرحلتي البداوة "التوحش" والحضارة،مقدماً تصوراً متطوراً لطبيعة العمران البشري[٢٩] تأثر به ابن خلدون فيما بعد، وفي تأريخه للعالم الإسلامي اتسمت رؤيته بالشمول فجمعت بين التاريخ السياسي

---

[٢٤] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٧، ٤٨.

[٢٥] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ١، ص٤ من مقدمة المحقق، بيروت، ب. ت.

[٢٦] المسعودي، التنبية والإشراف، ليدن، ١٨٩٣، ص٧.

[٢٧] مروج الذهب، جـ١، ص٢٦.

[٢٨] نفسه، ص٨٤، ٨٥

[٢٩] نفسه، ص١٣٧ – ١٧٠.

والحضاري في آن، كما أعمل ميزان النقد في الروايات قبل اعتمادها. بنفس الدرجة التي عول فيها علي الاستقراء والاستنباط في مجال التفسير[٣٠].

ولا نبالغ إذ نقرر أنه طرق باب "التنظير" حين عول علي شمول النظرة خلال الأزمنة الطويلة، فأتيح له "استخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه" علي حد قوله[٣١].

وفي كتابه "التنبيه والإشراف" نجد بدايات مقاربة "فلسفة التاريخ" ذلك أن هذا الكتاب يعد أخر ما صنف المسعودى، كما وأنه بمثابة "بانوراما" عامة لتاريخ البشرية، أفاد فيه من مؤلفاته السابقة، فلم يحفل بالأخبار وتحقيقها بقدر استنطاقها لتتبلور في صورة أحكام ومقولات أفاد في صياغتها من سائر المعارف المتاحة فقد أبرز مثلاً تأثير الجغرافيا في التاريخ السياسي فعرض لمباحث أشبه ما تكون "بالجيوبوليطيقا[٣٢]" كما عرض لتاريخ العقائد في مباحث ذات صلة بالانثروبوجيا الثقافية وعلم الأديان المقارن، حيث تابع ورصد المشترك الإنساني العام في مجال الدين مبرز اسمه "التواصل" و "الاستمرارية[٣٣]" في صورة أقرب ما تكون إلي "الإنسانيات" المعاصرة، ولا غرو فقد تابع تأثيرها في التاريخ والحضارة الإسلامية[٣٤]، بما ينم عن نزعة "هيومانية" بعيدة عن التعصب والتحجر.

وفي عرضه للتاريخ الإسلامي أبرز الأسباب والعلل المباشرة والعامة[٣٥]، فطرق مجال الرأي والرؤية في آن، فإذا أضيف إلي ذلك إحكامه الصلة بين المعارف المختلفة لتدخل ضمن موضوع التاريخ، نؤكد صدق حكم بعض الباحثين[٣٦] بأن المسعودى قدم الرؤية الحضارية للتاريخ.

---

[٣٠] شاكر مصطفي، المرجع السابق، جـ١، ص٥٢.

[٣١] مروج الذهب، جـ١، ص٦.

[٣٢] التنبيه والإشراف، ص٥,٦.

[٣٣] نفسه، ص١٣٧ وما بعدها.

[٣٤] نفسه، ص٢١٤، وما بعدها.

[٣٥] نفسه، ص٣١، وما بعدها.

[٣٦] أنظر: شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ٢، ص٤٧.

ونذهب نحن إلي أبعد من ذلك فنعتبر المسعودى من رواد فلسفة التاريخ ولا مبالغة في ذلك ألبته، إذ نجد في مصنفة ما يشي بالرؤية البيولوجية للتاريخ حين تحدث عن "نشأة الدول وشبابها وهرمها وعلل جميع ذلك[٣٧]" ودعوته إلي ضرورة معرفة المؤرخ "كيف تدخل الآفات علي الملك وتزول الدول. وتبيد الشرائع والملل، والآفات الخارجية المفترضة لذلك[٣٨]"، لقد وقف بحق علي ما أسماه فلاسفة التاريخ المحدثون "بالظروف الموضوعية" التي هي نتاج عوامل داخلية وأخري خارجية تتضافر معاً لإحداث "حركية" التاريخ وصيرورته. هذا فضلاً عن شمول هذه الصيرورة لسائر الظواهر المادية[٣٩] والروحية التي توحدت في مخيال المسعودى وتأطرت في ذهنه تأطيراً عقلانياً .

كانت جهود المسعودى في مجال التفسير والتنظير مدخلاً أساسياً لازدهار الفكر التاريخي خلال القرن التالي من منتصف القرن الرابع إلي منتصف القرن الخامس الهجريين الذي شهد "صحوة بورجوازية"تركت أثراً إيجابياً في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة.

وبديهي أن يتطور علم التاريخ خلال قرن الازدهار هذا موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

ولعل من أسباب ومظاهر هذا الازدهار اكتساء الكتابة التاريخية طابعاً دنيوياً بعد اختفاء المؤرخ المحدث وظهور الكاتب والتاجر والوراق والأديب وحتى الطبيب.

منها أيضاً الازدهار الذي عم سائر أصناف العلوم والفنون والآداب المختلفة سواء علي الصعيد المنهجي أو المستوي المعرفي، وكما كان معظم مؤرخي العصر ذوي ثقافة موسوعية، فقد أفادوا منها في مجال الكتابة التاريخية، ولعل من أهم جوانب تلك الإفادة اقتباس المشتغلين بالتاريخ الكثير من قواعد "المنهج العلمي التجريبي" الذي ترسخ في هذا العصر بفضل ابن الهيثم وابن سينا والبيروني وغيرهم كبديل عن اقتباس منهج

---

[٣٧] التنبيه والإشراف، ص٣.

[٣٨] نفسه، ص٤.

[٣٩] روزنتال: المرجع السابق، ص١٨٧.

أهل الحديث، كما كان الحال إبان القرن السابق، بفضل ذلك كله أحتل علم التاريخ مكانة جلي في كتب تصنيف العلوم[٤٠]، فقد أفرد الخوارزمي بابا "لأخبار التاريخ" في مصنفه "مفاتيح العلوم[٤١]" كما خصص ابن النديم فصلاً مطولاً عن "المؤرخين والتاريخ والنسابة[٤٢]" في كتابة "الفهرست" واعتبر إخوان الصفا علم التاريخ من العلوم الأساسية التي وظفوها لتثقيف الأتباع والأعوان.

وليس جزافاً أن يعترف جل دارسي علم التاريخ الإسلامي بهذه النقلة التي أكتمل بفضلها العلم "فبلغ سن الرشد[٤٣]" واختلط المؤرخون طرائق وقواعد جديدة أثرت العلم موضوعاً ومنهجاً ورؤية[٤٤]، فتحول من الرواية إلي الدراية[٤٥] ولا غرو، فقد تطورت موضوعات التاريخ المطروقة من قبل واستحدثت موضوعات جديدة، كالاهتمام بالتاريخ الاقتصادي ومفرداته[٤٦]، ومزج التاريخ بالجغرافيا والسياسة والفلسفة[٤٧] والعقائد والذهنيات وغيرها من مقومات التاريخ الحضاري.

وشهدت المظان التاريخية تطوراً مماثلاً، فجري الاعتماد علي الوثائق والمذكرات الخاصة والآثار والنقود وغيرها، كما جري الاهتمام بنقد المصادر المكتوبة[٤٨]، فصنفت كتب خاصة في نقد الروايات والرواة، وغدت الأخبار المستقاة من المشاهد والعيان حجر الزاوية في المادة التاريخية المعول عليها.

---

[٤٠] جب: المرجع السابق، ص٧٧.

[٤١] ص٦٠ – ٨٠، القاهرة ١٩٣٠.

[٤٢] الفهرست، ص٣٧ وما بعدها.

[٤٣] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٢٠٣.

[٤٤] ياسر نور، التأثير المنهجي لعلوم الحديث في مناهج المؤرخين المحدثين ص١٠١، ١٤٩، رسالة ماجستير، مخطوطة، المنصورة، ١٩٩٩.

[٤٥] عفت الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، ص٧٦، بيروت، ١٩٧٣.

[٤٦] روزنتال: المرجع السابق، ص١٦٣.

[٤٧] ابن النديم: المرجع السابق، ص١٢٠.

[٤٨] ميتز (آدم) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ١، القاهرة ١٩٥٧، ص٣٤٠.

وأفضي مناخ التسامح والحرية الذي ساد العصر إلي كسر الإكراهات والمحاذير التي كانت تغل يد المؤرخ في الكتابة، وتحول بينه وبين التزام الصدق والموضوعية، كما تقلصت السخائم العصبية والصراعات المذهبية والنعرات الإقليمية أو كادت لنجد بعض مؤرخي الفرس كحمزة الأصفهاني علي سبيل المثال ينصف العرب ويكتب بموضوعية عن أهل السنة رغم تشيعه[٤٩]، وحين صنف ابن النديم كتاب "الفهرست" خصصه لما وقف عليه من مصنفات "عن جميع الأمم من العرب والعجم[٥٠]".

في ضوء تلك المعطيات الإيجابية وغيرها تطورت الكتابة التاريخية، وانصب الاهتمام علي التحليل والتعليل والتنظير خصوصاً بعد "استقرار الرواية"، واستهدف المؤرخون الوصول إلي الحقائق وتوظيفها في شحذ الوعي عن طريق التثقيف والتربية والتنوير[٥١]، كما جمع بعض المؤرخين بين التاريخ وفلسفة الأخلاق، كما هو حال مسكوية علي سبيل المثال حرصاً علي توخي الصدق وتحاشي الكذب[٥٢]. وفي هذا الباب كتب أحد مشاهير مؤرخي العصر يقول: "إن التاريخ تجارب..... والرأي لقاح العقل، والتجربة نتاجه، والخير مقصد الحجى، والاجتهاد منهاجه[٥٣]".

ويشي هذا النص المقتضب بالكثير من خصائص الكتابة التاريخية في هذا العصر، وما يعنينا هو الوقوف علي تطور الفكر التاريخي خلاله في مجال الرأي والرؤية والتأويل والتنظير.

وأول ما يلاحظ في هذا الصدد، التعويل علي العقل في مجال التفسير[٥٤] بحيث عرف البعض علم التاريخ بأنه "علم علل الأحوال[٥٥]" واشتهر البعض الآخر بإرداف ذكر

---

[٤٩] بروكلمان: المرجع السابق، ص٦٠.

[٥٠] الفهرست، ص٣.

[٥١] محمود إسماعيل: إخوان الصفا، ص٦٧ وما بعدها، القاهرة ١٩٩٨.

[٥٢] شاكر مصطفي: المرجع السابق، جـ١، ص٤٥٤.

[٥٣] أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص٤، القاهرة ب. ت.

[٥٤] عبد العزيز عزت، ابن مسكوية، ص٩٢، القاهرة ١٩٤٦.

[٥٥] أبو شجاع: المرجع السابق، ص٥.

الحدث "بذكر السبب[٥٦]" كما هو حال هلال الصابي ومسكويه علي سبيل المثال ولا غرو. فقد أخضع مؤرخو العصر الكثير من الموضوعات اللاهوتية والغيبية لسلطان العقل[٥٧] فقد اتسعت رؤاهم لتجمع الكون برمته في وحدة كلية واحدة، يقول أحدهم "فالناظر في كتابنا هذا كلمشرف المطلع علي العالم مشاهداً حركاته وعجيب أفعاله[٥٨]" ولم يجد جلهم غضاضة في الجمع بين الدين والعلم[٥٩]، فتناولوا الكثير من القضايا الدينية دون خوف أو وجل. وحسبنا أن حمزة الأصفهاني[٦٠] علي سبيل المثال جمع بين التاريخ الديني والتاريخ الدنيوي في مصنف واحد، كما جمع أيضاً بين التاريخ والفلسفة، وكان ذلك إيذانا بظهور التاريخ المفلسف، وفي هذا الصدد قام إخوان الصفا بدور بارز أفاد منه المعاصرون واللاحقون، وحسبنا الإشارة إلي بعض ما سطروا في رسائلهم عن قيام الدول وسقوطها.

يقول الإخوان[٦١] "أعلم يا أخي بأن أمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قرناً بعد قرناً ومن أمة إلي أمة، ومن بلد إلي بلد... واعلم بأن كل دولة لها وقت منع تبتدئ وغاية إليها ترتقي، وحد إليه تنتهي، فإذا بلغت أقصي غاياتها، ومدي نهاياتها، تسارع إليها الانحطاط والنقصان، وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كي يوم يقوي هذا ويضعف إلي أن يضمحل الأول المقدم، ويستمكن الآتي المتأخر.

---

[٥٦] هلال الصابي: تاريخه، ص٣٣٦، القاهرة، ب. ت.

[٥٧] سالم أحمد محل: المرجع السابق، ص١٢٢.

[٥٨] المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، جـ١، ص١٧.

[٥٩] روزنتال: المرجع السابق ص٢٠١.

[٦٠] أنظر: حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٢٧، برلين ١٣٤٠هـ.

[٦١] رسائل إخوان الصفا، جـ١، ص١٨٠، بيروت، ب. ت. وعن مزيد من النصوص في فلسفة التاريخ عند الإخوان، راجع: محمود إسماعيل: نهاية أسطورة، ص٥٩ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٠.

ونعتقد أن الكثيرين[٦٢] من صفوة مؤرخي العصر كانوا ضمن هذه الجماعة ولعل من أشهرهم مسكويه (ت ٤٢١هـ) الذي ترأس مدرسة ضمت أبا شجاع والصابي والبغدادي والبيروني وغيرهم. ونظراً لأهمية ما تضمنه كتابه "تجارب الأمم" من آراء ورؤى في تفسير التاريخ، نتوقف عنده لرصد بعض مقولاته وتنظيراته.

يجمع الدارسون علي أن مسكويه اختط للكتابة التاريخية مساراً جديداً قوامه تحويل الوقائع إلي أحكام ومقولات تبدأ بالتدبير الذي يسبق الحدث، ثم ذكر الحدث كتجربة إنسانية، ثم تعليل تلك التجربة، وأخيراً ما تمخضت عنه من دروس وعبر، لقد اعتبر مسكوية التاريخ مستودعاً للتجربة الإنسانية، وعنوان كتابة "تجارب الأمم" شاهد أمين علي ذلك.

وما يعنينا إثباته أن رؤية مسكوية للتاريخ من نتاج عوامل شتي، منها كونه زيدياً اعتزالياً جمع بين عدل واعتدال المذهب الزيدي وبين عقلانية المعتزلة.

منها أيضاً حظه العريض من تحصيل علوم عصره الطبيعية والرياضية والفلسفية والأدبية والاجتماعية، والإجتماعية، وإفادته منها جميعاً في صياغة منظوره التاريخي.

والجديد الذي قدمه هذا المنظور يكمن في اطراح كل ما لا يقبله العقل حتى ولو كان مقدساً والإلحاح علي "ما كان تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز[٦٣]" لقد أثبت أن الأحداث والوقائع التاريخية نتيجة فعاليات بشرية مسبوقة بالتفكير والتدبير[٦٤].

وقد ساقته هذه النظرة إلي الاهتمام بالجوانب الاقتصادية بمفرادتها الدقيقة هو "ما لم يلفت إليه غيره، وقد يقف علي أمر صغير قد يكون فيه درس كبير[٦٥]"، ومن هنا عول علي النظرة النقدية للمرويات، واعتمد فيها ما يقبله العقل، كما اعتمد علي حصاد

---

[٦٢] أنظر: روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٧، عبد الله العروي العرب والفكر التاريخي، ص٣٥٠، بيروت ١٩٧٣.

[٦٣] مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص٣، طهران ١٩٧٨.

[٦٤] نفسه ص١٥٠.

[٦٥] أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٦.

مشاهداته وصلاته واستخلص منها جميعاً مادة كتابه الذي اعتبره البعض[٦٦] أهم ما كتب في التاريخ الإسلامي، لقد نظر مسكوية إلي الروايات التي حوتها كتب التاريخ باعتبارها محض "أخبار تجري مجري الأسمار والخرافات لا فائدة منها غير استجلاب النوم بها[٦٧]"، ومن هنا حرص اشد الحرص علي قياس الأخبار علي العقل المنوط بتمحيصها أولاً، ثم استكناه عللها بعد ذلك.

من الجديد الذي تفرد به مسكويه أيضاً، إدماج الراي في التجربة[٦٨]، واستخلاص العوامل المؤثرة من هذا الدمج في صياغة الأحداث الكبري، وفي هذا الصدد أولي مسكويه السياسات الاقتصادية اهتماماً كبيراً بأعتبارها العامل المؤثر في السياسة[٦٩] بل في العمران كله[٧٠].

وحق لنا أننسجل له سبقاً فريداً حين فطن إلي مسئولية الطبقة الوسطي عن خراب العمران في العالم الإسلامي الوسيط[٧١]، وتفسير حركات العيارين وثورات العوام بالسياسات والإجراءات الإقتصادية المشتطة[٧٢]. وفق نفس الرؤية فسر استقرار الأحوال السياسية وازدهار العمران بالسياسات الإقتصادية الرشيدة[٧٣]، لقد كان بحق أول مؤرخ إسلامي يفطن إلي أهمية التفسير المادي للتاريخ.

في نفس المكانة نضع أبا لريحان البيروني (ت٤٤٠هـ) كمؤرخ طفر بالفكر التاريخي طفرة كبري، خصوصاً في مجال التفسير والتنظير.

---

[٦٦] روزنتال: المرجع السابق، ص١٩٦.

[٦٧] تجارب الأمم، جـ١، ص٢٢.

[٦٨] مرجوليوث: المرجع السابق، ص١٢٣.

[٦٩] نفسه، ص١٤٣.

[٧٠] تجارب الأمم، جـ٢، ص٦٩، القاهرة، ب. ت.

[٧١] نفسه، ص١٤٣.

[٧٢] نفسه، ص٩١.

[٧٣] نفسه، ص١٢٨,١٢٧.

كان البيروني كمسكويه والمسعودي شيعياً زيدياً إعتزالياً ، إشتغل بالسياسة ثم لفظها إلي العلم والمعرفة[٧٤]، فحاز قصب السبق في الإلهيات والمنطق والفلك والجغرافيا إلي جانب التاريخ بطبيعة الحال، وأسهم إسهامة كبري في تطوير المنهج العلمي التجريبي، وحسبه أن كان أول من تحدث عن "القانون" العلمي كمصطلح[٧٥].

كتب البيروني عدداً من المؤلفات في التاريخ، لم يبق منها سوي كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة" وكتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وما يعنينا هو الوقوف علي رؤية البيروني للتاريخ أو بالأحري ما أضافه من جديد في مجال التفسير والتنظير.

يعد الكتاب الأول تاريخاً حضارياً للهند، مقارناً بحضارات الأمم الأخري، بما يشي بأتساع "المخيال" التاريخي لمؤلفه، فضلاً عن ثقافته العريضة والموسوعية التي تتمثل في احتواء الكتاب علي دراسات معمقة في العقائد والإتنولوجيا والأنثروبولوجيا، إلي جانب أبحاث أخري في الميتافيزيقا والطبيعة، مزج البيروني بينها جميعاً ، وصاغ هذا المزيج صياغة فلسفية معمقة[٧٦].

وبرغم وفرة وزخم تلك المعلومات إلا أن البيروني صنفها وبوبها في تسلسل واتساق ينم عن إدراك ووعي بالصلة الوثيقة بين المعارف المختلفة، وقدرة في فهم اصطلاحاتها.

والأهم من ذلك ما قدمه من رؤية "أنطولوجية" تجمع كل ظاهرات الوجود المحسوس والمعقول في وحدة واحدة، كذا النظر إلي الأمم والشعوب المختلفة نظرة متوحدة أيضاً ، تأسيساً علي وجود "مشترك إنساني عام" في القيم والحضارة، فقد تساوت

---

[٧٤] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة، ص١٠، ١١ من مقدمة المحقق، بيروت ١٩٨٤.

[٧٥] راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، جـ٢، مجلد٢، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٠– ٤١.

[٧٦] البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ص٤ وما بعدها.

في هذا المعني جميع الأمم[٧٧]، لذلك يعد الكتاب شاهداً علي منهجية جديدة تعالج موضوعات جد مبتكرة في صياغة فلسفية منطقية.

ولا جدال في أنه قدم رؤية فلسفية تجمع بين إنجازات العلوم المختلفة والتجارب البشرية التي أفرزتها في منظومة واحدة.

وفي هذا الصدد يقف الدارس علي مقولات هامة في فلسفة التاريخ، منها أن قيام الدول لا يتحقق "إلا بأجتماع الملك والدين[٧٨]"، منها أيضاً الوقوف علي تأثير البعد الطبقي بمعناه العلمي في صياغة الوقائع والأحداث، تأسيساً علي أن الطبقات نتاج "عمل أو صناعة أو حرفة[٧٩]"، منها أيضاً وجود علاقة عضوية بين المحسوس والمعقول[٨٠] انطلاقاً من فلسفة "وحدة الوجود" فالعالم نتاج أفعال بشرية تصنع "العمران" وهو "معمور بالحرث والنسل[٨١]" والحضارة "مشترك إنساني عام[٨٢]".

نستخلص مما سبق استناد فلسفة التاريخ عند البيروني علي العقل النقدي أولاً، والوجود المادي ثانياً، والفعل البشري أخيراً[٨٣]، لذلك كان علي وعي تام بتفرده فيما توصل إليه، كما كان حريصاً علي تقديم دروس تعليمية للمؤرخين عن شروط الكتابة وإشكالياتها ومرجعياتها ومناهجها، وهي دروس تفرد بها عن رؤية ووعي، يقول في ذلك "لقد أعيتني المداخل فيه (أي ما توصل إليه) مع حرصي الذي تفردت به في أيامي[٨٤]".

ومن أهم ما استحدث البيروني في مجال المنهج بخصوص "المرجعيات" حكمه بأن ما يحصله المرء عياناً أهم بكثير مما يعرفه سماعا "فليس الخبر كالعيان.. لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده ... أما الخبر فيكون عن

---

[٧٧] نفسه، ص١٣٨.

[٧٨] نفسه، ص٥٥.

[٧٩] نفسه، ص٧٠.

[٨٠] نفسه، ص٧٨.

[٨١] نفسه، ص٣٥.

[٨٢] نفسه، ص١١٩.

[٨٣] نفسه، ص١٠٧.

[٨٤] نفسه، ص١٢.

الشيء الممكن الوجود[٨٥]" وفي حديثه عن الأسباب التي تحول دون الموضوعية في الكتابة التاريخية يقول: "وللخبر آفات.. وفيه الصدق والكذب"، ورد الكذب إلي "تفاوت الهمم وغلبه الهراش والنزاع علي الأمم" فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه... ومن مخبر عن متقرب إلي خبر بدناءة الطبع أو متقياً لشر.. ومن مخبر عن جهل وهو المقلد للمخبرين[٨٦].

ونعتقد أنه وقف بذلك علي الأسباب الذاتية والموضوعية التي تحول دون المصداقية. والأهم من ذلك أن البيروني طبق القواعد المنهجية هذه حين صنف كتبه في التاريخ.

أما عن رؤيته التاريخية في كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية" فكانت أكثر تفلسفاً وأعمق نظراً ، لأن الكتاب مصنف في التاريخ العالمي، قدم فيه البيروني صورة للتاريخ البشري والحضارة الإنسانية وفق منهج يرصد النتائج الهامة والآثار العميقة التي وجهت التاريخ الإنساني كله، وغالبت الزمان والمكان لتقف شاهداً علي عظمة الإنسان، وفي هذا الصدد فطن المؤلف إلي ما يمكن أن نطلق عليه "الزمان التاريخي" إذ نقف عليه من خلال جدل الزمان مع الأحداث، حيث يفرق بين الغث منها والثمين، أما الغث فيذهب جفاء، وأما الثمين فيبقي لينفع الناس، وهذا الثمين هو الذي عرض له البيروني في كتابه بدلاً من "أعمال الملوك وأفاعليهم مما تمجه الأذان ولا تقبله العقول[٨٧]".

وبصدد التمييز بين الغث والثمين في وقائع التاريخ، توسل البيروني بمنهج "الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات" بعد "تنزيه النفس عن التعصب والتظافر وابتاع الهوي والتغالب بالرياسو[٨٨]".

لقد عول علي المحسوس في معرفة المنقول، ووقف علي الغائب من خلال معرفة الشاهد، تأسيساً علي وحدة الوجود المعرفي، وقياساً علي وحدة الوجد الأنطولوجي.

---

[٨٥] نفسه، ١٣.

[٨٦] نفسه، ص٦٤.

[٨٧] البيروني: الآثار الباقية، ص١٠٠.

[٨٨] نفسه، ص٤.

ومن خلال ذلك قدم البيروني تأريخاً مصفي بعيداً عن التحريف والزيف الذي "هو خداع للأمم[٨٩]".

هذا المنهج القويم – فيما أري – جاء نتيجة ثقافة عريضة ودراسة في العلوم الطبيعية والرياضة، فضلاً عن نتاج جهوده للأرتقاء بالمنهج العلمي التجريبي، ولعله تأثر كذلك بهذا المنهج، حين انفرد بين مؤرخي العصر الوسيط بالوقوف علي أهمية ما نسميه الآن "بالمنهج الكمي" "الكوانتوم" المؤسس علي الجداول والإحصاءات والمعادلات الرياضية وتوظيفها في دراسة العلوم الإنسانية[٩٠]، لذلك كله وغيره حق للأستاذ "سخاو" القول بأن البيروني يعد من أعظم العقول التي أنجبتها البشرية.

خلاصة القول، أن نشوء وتطور منهجية التفسير التاريخي كان مرتبطاً بتاريخ العلم والثقافة في الإسلام، وكلاهما كانا بالمثل نتيجة معطيات سوسيو تاريخية، اقتصادية واجتماعية وسياسية.

---

[٨٩] نفسه، ص٢٠٤ وما بعدها.

[٩٠] عن نماذج في هذا الصدد: راجع: الآثار الباقية، ص١٠٥ علي سبيل المثال.